المدرسة

خطاب لحضرة الاب مبارك ثابت اللبناني
رئيس دير المخلص في الزهرانية
القاهُ في مدرسة الاخوة المربيين بجونية في ٢٥ اذار سنة ١٩٢٩ -
بدعوةٍ من الاخوة لامتحان التلامذة[1]

المدرسة ثلاثة أركان : الإدارة ، والمعلِّم ، والتلميذ . ومن احتكاك هذه العناصر الثلاثة تخرج نارُ النجاح . كان أهلُ بلادنا قبل استعمال عيدان الكبريت يستخرجون النار من الحجارة الصلبة بطريقة الإقتداح. يأخذون قدَّاحةً قطعةً من الفولاذ وصوَّانةً وصوفانةً فيضعون الصوفانة على حجر الصوَّان ويضربون عليهِ بالقدَّاحة فيتطاير من الحجر شررٌ يقعُ على الصوفانة فتشتعل . والصوفانة يجوز أن تكون شيئاً من القطر يُؤخذُ عن جذوع بعض الشجر أو قطناً ناعماً أو خِرقةً من نسيج القطن أو غير ذلك من الأشياء القابلة الاحتراق من مَسِّ شرارةٍ . فالقدَّاحةُ مثالُ الادارة في المدرسة . والصوَّانةُ مثالُ المعلِّم . والصوفانة ، أي المادَّةُ المحترقة ، مثالُ التلميذ . فكما أنَّ النار تُستخرجُ من الثلاثة معاً ، كذلك النجاح يُستخرجُ من أركان المدرسة الثلاثة : المدير والمعلِّم والتلميذ . اذا خلا أحدُ العناصر الثلاثة أو نُقضت عندهُ شروطُ الإقتداح لم تحصل النار المنشودة.

أخصُّ ما تتناولهُ مهمَّة الادارة وضعُ نظامٍ ملائمٍ ومضبوطٍ بالوقت ، بالساعة والدقيقة والثانية تُراعى فيهِ أحوالُ المعلِّم والمتعلِّم من صحيَّةٍ وروحيَّةٍ وعقليَّة . ثمَّ إجراء ذلك النظام على الموضوع لهم وتقييدهم بهِ مع فتح عين اليقظة والمراقبة حتى لا تمتدَّ اليهِ أيدي العَبَث ولا يُنظر اليهِ بعين الازدراء.

ومن حيث انها سلطةٌ مشترعةٌ وحاكمةٌ معاً فلا بُدَّ لها من خُلَّتين : العلمُ لإجادة التشريع ، والعدلُ لصون المهابة وتزكية الأحكام . ومن مقتضياتهِ

---

١) ظفر بهذا الخطاب النفيس حضرة صديقنا الاب انطونيوس شبلي اللبناني وأراد ان يحبِّبهُ بمجلَّتنا « المشرق » فلهُ خالص شكرنا وتقديرنا.

إثابة التجويد ومعاقبة الإخلال . والفطنة خُلَّة ثالثة تحرسُ الخُلَّتين وتسيّرهما في سبيل الرشاد . وعليها في الأخص يترتّب إقرارُ السلام .

٥

ومهنةُ المعلم سامية ودقيقة جدًّا وذاتُ مشقّةٍ وضمانات كثيرة . لذلك لا أراني مخطئاً اذا شبّهتُهُ بالصوّانة لما يلزمهُ من التصلّب والتجلّد حيال حياة التعليم المملّة وما يلازمها من تعب الدرس والمطالعة والتصحيح والإلقاء والتفهيم والتحضير والردع والتشويق مع المراعاة لطبائع الحداثة ومنازعها ، الى سائر أطوارها الصبيانية .

وكما تبرى الصوّانةُ بتكرير ضرب القدّاحة ، كذلك تبرى حياةُ المعلّم بتأثيرات التعليم المتواصلة . واذا لم تكن لهُ غزارةُ العلم وغيرةُ القلب فلا يزيد تعليمهُ على ان يكون شرارةً هامدةً ضئيلة النور تنطفئ أوّل ظهورها ، أو تقع على ذهن الطالب فلا تُحدث فيهِ اشتعالاً ولا إشراقاً .

وليست مهنةُ المعلّم بمقصورةٍ على تثقيف عقل التلميذ بالعلم ، بل تتناول ومن باب الوجوب ، تهذيبَ قلبهِ وتوجيهَ رغائبهِ الى الخير ، لأنَّ العلم لا يُعلي قدرَ الانسان ولا يعود عليهِ بالسعادة والمجد ما لم يكن مقروناً بالأخلاق الحميدة . والأخلاقُ بَنَاتُ التأديب . فالمعلّمُ معلّمٌ ومؤدّبٌ ، فينبغي أن يكون أخا فراسةٍ وفطنةٍ وذكاء ، وذا نظَرٍ مصيبٍ في الغرائز والميول والأمزجة وما يطرأ عليها من تطوّرٍ وتحوّلٍ بقوّة العوامل التي تنتابها من الخارج والداخل ، فيعدّل شهوات تلميذهِ ويُصرفها في مقاصد الصلاح ، ويُرقّي أخلاقهُ ويُبعدها عن الفساد ، ويردّ قلبهُ عن الزيغ ويثبّتهُ في الاستقامة والحق ، ويغرس فيهِ الفضائل ويتعهّدها بما يُمكّن أصولها ويُوليها غزارةَ المائيّة وسرعةَ النماء وجودة الاثمار ، ويهذّب ارادتهُ بتعويدهِ الصبر على مشقّة الدرس والجرأة على العُقد والمشكلات ، وبتشويقهِ الى الجهد وتعظيمهِ في عينيهِ حتى اذا عرضتهُ صعوبةٌ لا ينكص عنها منحلّ العزيمة منخلع القلب ، فينشأ ضعيف الارادة واهن العزم قليل الثبات والجَلَد وَكِلًا يقنع بالهيّن الميسور ويقول : هو الحظُّ لا يُنيلهُ الجَهدُ ولا يُحتبهُ الكدُّ . والحقيقة ان الحظَّ في الشؤون الانسانية لا سلطان لهُ ولا هو موجود .

المطران مرهانس فرحات

وئيس اساقفة حلب الماروني

١٦٧٠-١٧٣٢

عين المعارف والمعارف والنهى والحجة الغراء والبرهان
فخرت به الفصحى وزرّ محلها لما كساها ثوب سحر بيان
كم من عقود لآلىء في طرسه ناهت على الياقوت والمرجان
قد جابت الآفاق بسطة علمه وغدت مردّدة بكل لسان
تجاعد الآثار يندر عدها يحيا بذكراها مدى الازمان

فالمعلّمُ الصالحُ هو الذي يعرفُ من تلاميذهِ مداخل الذهن والقلب فيوصل اليهم العلمَ والفضيلةَ والحقَّ والعدلَ وتقوى الله من أقرب الطرق ، وينصبُ لهم نفسهُ مثالًا في ذلك ويستميلهم بالحيلة البارعة الى فرضةِ الطاعة والركون والإصغاء .

ومهمّةُ التلميذ تحصيل المعارف على قدر الطاقة وقياس ما أوتيه من التأهب الطبيعي للحفظ والفهم والحذق . ولا بُدَّ لهُ من الارادة الحازمة والرغبة الصادقة ليتخطّى العقابَ الصعابَ ويُصادف لذّةً في الدرس تجتذبهُ اليهِ وتُنشّط شعورهُ بالتعب ، وتهوّن عليهِ ما قد يستصعبهُ من ضبطِ الافكار وحبس الحواس ، على ما بذلك من قلّة الملاءمة لطبيعة سنّهِ النازعة الى التشتُّتِ والتلهّي واللعب . وليس عليهِ ان يجاوز في الجهد حدَّ الاعتدال رغبةً في السبقِ والتفوّقِ ، فذلك إسرافٌ يغلبُ ان يكون وخيم العاقبة .

واذا عارضتهُ بالتقصير لم يكن الإسرافُ أفضل منهُ ، وأكثرُ الاحيان ينتهي الإسرافُ الى التقصير . مَن بالغ في إيساع خطوهِ في طريقٍ طويل فلا يبطؤ ان يُقعده الكَلَلُ عن الانتهاء الى آخرهِ . وخيرُ الامور الوَسَطُ . والوَسَطُ في المدرسة النظامُ ، فمَن يتقيّد بهِ يسلم من الآفتين : التفريط والإفراط . ومَن يحدْ عنهُ يقع في إحداهما لا محالة . وقد وزّع النظامُ ساعات اليوم بين أعمال التلميذ على حسبِ طاقتهِ وحاجاتهِ مراعياً صحّةَ العقلِ والبَدَنِ وطبائعَ الدارس ونزعاتهِ . فما عليهِ إلّا ان يسلك طريقهُ آمناً مطمئناً فينتهي الغرضُ ظافرًا دون عثرةٍ ولا ضلال .

وليعلم التلميذ أنَّ الأخلاق الكريمة أجدى عليهِ من العلم الكثير ، وانَّ بها راحتهُ وسعادتهُ ونجاحهُ ومجدَهُ . واذا عرف ان يجمع بينها وبين العلم استكمل الزينة الادبيَّة التي تُلفتُ اليهِ الأنظار وتملكهُ مقاليد القلوب وتمكّنهُ من كلّ مطلبٍ نافعٍ وشريف ، فلا يألُ جهدًا في اقتناصها ما دام في المدرسة فذلك ميسورٌ لهُ لِما يرى من رسومها في الكتب التي بين يديهِ وفي القدوات الجميلة التي يشاهدها عند أهل الصلاح من معلّميهِ ورفقائهِ ومرشديهِ . وسبيلهُ التشبُّهُ بالنحلة التي تقعُ على الأزهار فتأخذ حاوها وصيّبها فتعمل منهُ الشمع والعسل الجيّدين ، وقد تركتْ ما في الأزهار من مُرّ وخبيث .

حسنُ الطاعة ، ورعايةُ النظام ، وإكرامُ السلطة ومحبتها في الغيب والشهادة ، والرسوخُ في الايمان ، والاعتصامُ بتقوى الله والاخلاص في محبتهِ بحفظ وصاياهُ ، وإقامة فروض عبادتهِ ، والولوعُ بإجمال الصنع الى جميع الناس ولا سيما الخلطاء وأهل العشرة ، والتجافي عن البغضة والحقد والحسد ، وحبسُ اللسان عن النميمة والكذب والشتم واللعن والمزاح القارص والثرثرة المعيبة وفحش الكلام ، والتجمُّل بالفضائل الالهيَّة والأدبيَّة ، والتزيِّي بالكياسة والادب ، وتجنُّبُ عشراء السوء ، والالتصاق بأهل الخير ، والتنزُّهُ عن الخبث والرياء والتصلُّف والخيلاء والإعجاب بالمواهب الطبيعيَّة أو بالمحاسن المكتسبَة ، والاستسرار على حال الوداعة والبشاشة والصراحة فكرًا ونطقًا ، والمحافظةُ على الزمان ألَّا يضيع منهُ ولو ساعة بلا عملٍ نافعٍ لنفسك او لغيرك من الناس ، مع الجدِّ في تحصيل المعارف. تلك علاماتُ النجاح الحقيقي والمستقبل اللامع لولدٍ أو شابٍّ يسأل عن مستقبلهِ كيف يكون.

النجاحُ في الاعمال والحالات المختلفة ليس مختصًّا بالعقول الكبيرة بل بالارادات القويَّة. وجائزةُ النجاح ينبغي ان يُكافأ بها أجلُّ التلامذة أخلاقًا لا أجودهم عقلًا ، لأنَّ جودة العقل موهبةٌ وجودة الاخلاق فضيلة. ومأخذ الموهبة بلا تعب ، ومأخذ الفضيلة بالتعب وشقِّ النفس.

ومن التلامذة مَن لهُ حظٌّ وافرٌ من العقل فإمَّا ان يُعوِّل عليه وحدهُ دون الجهد ، وإمَّا ان يقرنهُ بيسيرٍ من الجهد لاستيلاء الكسل عليهِ فيقصِّر عن شأوِ أقرانهِ في المطالب ويسبقهُ مَن دونهُ فهمًا وتوقُّد ذهن ، فلا يلمع في سباقٍ ولا في امتحانٍ ، فيتعلَّل لنفسهِ عذرًا بسوء الحظِّ كأنَّ للحظِّ يدًا في النجاح. ولو تدبَّر الأمورَ لعرف انَّ الحظَّ لا يفوت ان يكون كلمة أهل الجبن والكسل ، وانَّ النجاح انما هو بإحكام عَقْدِ القلب على المقاصد . فمن عرف ان يُريد أدرك الوطر لا محالة ، لأنَّ الارادة الثابتة لا يملكُ صدَّها عن أغراضها الناسُ ولا الطبيعةُ ولا العناصر . قال ديكارتُ : الارادة هي أشدُّ ما فينا التصاقًا بنا ، فعقلُنا وحسُّنا لا يفوتان ان يكونا شيئين لنا ، أمَّا ارادتُنا فهي أنفُسنا.

إنَّ النجاح الذي تجلّى لي في امتحان الطَّلَبَة المحبوبين في الدروس العربيّة ، قد جاء معزِّزًا لما عرفتُهُ بالاختبار الطويل من عناية الاخوة المربّين المحترمين باللغة العربيّة. قلتُ بالاختبار الطويل ، لأنّي قمتُ بتدريس هذه اللغة مدَّة ست سنوات متتالية في المدرسة التي كانت لهم في مسقط رأسي دير القمر ، فكانوا يوفّرون للتلامذة كلَّ ذرائع النجاح في لغتهم الوطنيّة ، ويبالغون فيهم تشويقاً وترغيباً بالمكافآت الحسنة ، وباقبال بعضهم ممَّن ينفسح لهُ الوقتُ على تعلّمها اسوةً بتلاميذهم ، فأنجبتْ تلك المدرسةُ الشاهرةُ عددًا من الادباء كتّاباً وشعراء يؤدّون اليوم وطنهم جليل الخدمات في مناصب ومهامّ مختلفة.

وما كانت مدرسة دير القمر إلّا أصغر مدارسهم في البلاد . فماذا نقول في مدارسهم الكبيرة كمدرسة جونية التي ما مضى على نشأتها بضع سنوات حتى صارت الى مستوى المدارس الجامعات في المدُن.

لا أنكرُ ان نجاح التلميذ مترتّبٌ على ذكائهِ واجتهادهِ ، لكنَّ من اسبابهِ ايضاً حسن الادارة وبراعة التعليم ، وهذانِ الشرطانِ اعتُقد حصولها في هذه المدرسة في مرتبة الكمال . فإنَّ لحضرة الاخ رئيسها الفاضل شهرةً بعيدةً في صلاح التدبير والحنكة الاداريّة والسهر الدائم على سير الامور مع المحافظة على القوانين وضبط النظام. وانتم راؤون ما يقارن تصرّفهُ من الحكمة والفطنة وسداد الرأي والتهالك على ما يرقّي المدرسة ويقرّبُ فيها موارد المنافع للدارسين ويسهّلُ الاساتذة سُبُلَ التدريس ويضمنُ الراحةَ والسلامَ والمصلحةَ للجميع .

ولمّا كانت الرعيّة براعيها وأهل المدينة كواليها ، صحّ لنا القطعُ بأنَّ في هذا المعهد المبارك ، اساتذة بارعين ناهضين أكمل نهضةٍ بواجب التعليم والتهذيب ، وتلاميذ نُبهاء عُقلاء ظُرفاء الاخلاق قائمين بما عليهم من واجب الإصغاء والتحصيل أحسنَ قيام. فلا غروَ ان نرى اليوم ما رأيناهُ من نجاح الاكثرين نجاحاً تطيب بهِ النفس وتقرُّ بهِ العين.

فحقٌّ عليَّ وعلى كلّ لبنانيّ أن نشيد بفضل الاخوة المربّين الذين هجروا أوطانهم وتخلّوا عن أعزّ ما لديهم وجاؤوا بلادنا بعقولهم الذكيّة وأيديهم القويّة ومعارفهم الواسعة وأخلاقهم الكريمة وأنفسهم الكبيرة ، ليبذلوا منها لشبابنا الوطنيّ عن نفس سخيّة . لا يبغون ثواباً سوى رضا الله ونشر الثقافة

والفضيلة ، وتربية النشء على مخافة الربّ ، وتسديد خطاهُ في سبيل البرّ والاستقامة ، وتجميلهِ بالمعارف المعاونة على تحصيل المنافع وتوثيق عرى الاتحاد بين أعضاء المجتمع لادراك السعادة المستطاعة في الدنيا والمشتهاة في الآخرة .

أجل ! إنَّ الاخوة المربّين يتقاضون إجرة التعليم من بعض طبقات التلاميذ غير أنَّهم لا يتقاضون إلّا ما يحقُّ لهم من معاش لأنَّهم عَمَلَةٌ . وأيُّ عامل لا يستحق إجرتَهُ ، أم أيُّ خادم لا يستأهل قُوتَهُ وكسوتَهُ . فهؤلاء الشبّان الذين تخلّوا عن جميع ملاذّ الدنيا والجسد وقيّدوا أنفسهم بتثقيف الشبيبة بنذر فه الى منتهى العمر ، لا تجدون عند الواحد منهم خزانةً ولا كيساً ولا مجموعةً ألبسةٍ ولا شيئاً ممَّا يزيد عن الضروري . وانَّما يأكل خبزَهُ بعرق وجهه وكدّ عقلهِ وقلبهِ ، فان فضل عنهُ شيء فليس لهُ ولا يبقى دقيقةً في حوزتهِ ، بل يصير اسماً الى الجمعيّة وفعلاً الى الخير العام . يُصرفُ بعضهُ الى عجّازها والبعض الى الفقراء ، وفي انشاء المدارس وترميمها . على أنَّ المدارس المُنشأة في البلاد انَّما هي لأهل البلاد . أمَّا الاخوةُ المربّون فعوّلهم في الحياة على مبدإ القديس بولس الرسول : حَسْبُنا القوت والكسوة .

فعلينا ان نوفيهم حقَّهم من المحبّة والاكرام ، ونبذل لهم المعاونة والتعضيد ليتمكّنوا من القيام برسالتهم الشريفة ، بخدمتنا الأدبيّة . فأنا أحيّي فيهم العلم والغيرة والفضيلة المسيحيّة ، وأُثني أطيبَ ثناء على السادة الاساتذة الوطنيّين القائمين معهم بمهمّة التعليم الشاقّة ، بهمّةٍ لا تقعدُ ولا تعرفُ المَلَل .